هذا الكتاب : لماذا ؟

خمسة أعوام مضت من أكتوبر ١٩٧٣ حتى أكتوبر ١٩٧٨ ، وقعت فيها أحداث جسام تركت أثرها على مصر والوطن العربى ، وما زالت تؤثر فيه .

ففى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كنت فى مركز عمليات القوات المسلحة أرتدى لبس الميدان حيث بدأت الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل ، وكنت أقوم بعملى فيها « رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة » : هذه الحرب التى اشتركت فيها امتداد لحروب سابقة فى الصراع العربى الإسرائيلى .

وبعد خمس سنوات بالضبط – يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٨ – انتهت خدمتى بالقوات المسلحة كقائد عام لها ، وانتهى عملى العام بالدولة كنائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية والإنتاج الحربى . وكنت فى منزلى فى ذلك اليوم مرتدياً ملابسى المدنية ، أشاهد على شاشة التليفزيون العرض العسكرى الذى يقام سنوياً احتفالاً بالنصر فى تلك الحرب .

بدأت هذه الفترة من تاريخ مصر والعرب بحرب أكتوبر ١٩٧٣ التى هزت منطقة الشرق الأوسط هزاً عنيفاً ، وقلبت الموازين السياسية والعسكرية والاقتصادية فى المنطقة . وعلى إثرها حدث فض الاشتباك الأول على الجبهتين المصرية والسورية ، ثم فض الاشتباك الثانى على الجبهة المصرية ، وأعيد فتح قناة السويس للملاحة ، وألغيت معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية .

وقام الرئيس الراحل السادات بزيارة القدس فى أواخر عام ١٩٧٧ التى أطلق عليها « مبادرة السلام » . وبعد مفاوضات سياسية وعسكرية بين مصر وإسرائيل وصلت إلى طريق مسدود ، وقع الرئيس السادات « اتفاقية كامب ديفيد » بين مصر وإسرائيل فى الولايات المتحدة الأمريكية فى سبتمبر من العام التالى ١٩٧٨ .

وكان رأى الرئيس السادات ، كما أبداه لى بعد أسبوعين من توقيع هذه الاتفاقية ، أن مصر تمر بمرحلة جديدة تتطلب تغييراً شاملاً فى مؤسسات وأجهزة الدولة . ولذلك قرر تغيير الوزارة حينئذ – وزارة ممدوح سالم التى كنت نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية فيها – بوزارة أخرى ، واختيار رئيس جديد لمجلس الشعب ، وتغيير القيادة العسكرية – القائد العام ورئيس أركان حرب القوات المسلحة – وإطلاق اسم وزارة الدفاع على وزارة الحربية . كما تتطلب المرحلة الجديدة إجراء مفاوضات مع إسرائيل لوضع اتفاقية كامب ديفيد موضع التنفيذ فى صورة معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل .

□ □ □

عندما تركت خدمة القوات المسلحة فى أكتوبر ١٩٧٨ ، كان قد مضى على الصراع العربى الإسرائيلى ثلاثون عاماً (١٩٤٨ – ١٩٧٨) دار خلالها أربع حروب ، هى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وحرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وحرب يونيو ١٩٦٧ التى تلاها ست سنوات عجاف تخللتها حرب الاستنزاف ، ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وهى حروب عاصرتها واشتركت فيها عدا الأولى حيث كنت فى بعثة تدريبية خارج الجمهورية عند نشوبها .

وإذا كانت الحروب التى دارت بين إسرائيل والعرب تجذب الناس بأحداثها ونتائجها المباشرة ، إلا إنى كنت أشعر دائماً أننا – نحن العرب – لا نتعمق فى دراسة جذور الصراع العربى الإسرائيلى ، ولا نعطى الأهمية الواجبة لمعرفة ما قامت به الصهيونية العالمية والدول الكبرى من تخطيط وما نفذته من أعمال فى جميع المجالات ، حتى أقامت دولة إسرائيل على جزء من أرض فلسطين ، وما قامت وتقوم به إسرائيل تؤيدها الدول الكبرى وتدعمها الصهيونية العالمية منذ إنشائها حتى اليوم . وبذلك يمكننا – نحن العرب – أن نتصور ونتوقع ما يخبئه المستقبل لهذه المنطقة من العالم ، وما ننتظره من نتائج لهذا الصراع ، وكيف نستعد لمواجهته فى إطار الصراع الدولى الذى يشكل فيه الشرق الأوسط دوراً بارزاً .

لقد اعتمدت الصهيونية العالمية على « القوة المسلحة » لإنشاء الدولة . فقد أنشأت فى وقت مبكر جداً فى فلسطين أول منظمة عسكرية سميت « الحارس » ، فكانت هى نواة الجيش الإسرائيلى الذى أعلن تكوينه ووجوده فور إنشاء الدولة .

وكان شعار بن جوريون الذى اطلقه حينئذ « بالدم والنار سقطت اليهودية ، وبالدم والنار تعود من جديد » . وكان ذلك تأكيداً لقرار من الصهيونية العالمية يقضى بأن « الحرب هى الوسيلة الوحيدة لإنشاء الدولة » .

ولما كان إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ليس هدفاً فى حد ذاته ، بل هو مرحلة للتوسع على حساب الأرض العربية والسيطرة عليها عسكرياً واقتصادياً وسياسياً ، فقد أصبحت القوة العسكرية الإسرائيلية لها الدور الأقوى والأهم ومصدر الخطر الرئيسى على الدول العربية . وكما قال بن جوريون – منشىء الدولة – تعبيراً عن هدف الصهيونية من إنشائها :

« دولة إسرائيل هى مجرد مرحلة على طريق الحركة الصهيونية الكبرى التى تسعى إلى تحقيق ذاتها ، بحيث لا تشكل هذه الدولة هدفاً فى حد ذاته بل وسيلة إلى غاية نهائية . ومن ثم فهى ليست تجسيداً كافياً للرؤية الصهيونية الأصيلة » .

□ □ □

وجاءت حرب يونيو ١٩٦٧ بنتائجها الأليمة للعرب ، وأصبح بن جوريون – نبى إسرائيل المسلح – أكثر وضوحاً فى التعبير عن أهمية القوة العسكرية لتحقيق التوسع الذى تهدف إليه إسرائيل ، عندما قال : « يجب أن نتخذ من الفتوحات العسكرية أساساً للاستيطان وواقعاً يجبر العرب على الرضوخ والانحناء له » .

وإلى أى مدى يتم التوسع ، وأين حدود إسرائيل ، رد قائلاً :
« حدود إسرائيل تكون حيث يقف جنودها » .

ويتضح لنا من النظرة الفاحصة للجولات الثلاث الأولى (١٩٤٨ - ١٩٥٦ - ١٩٦٧) أن إسرائيل تستعد دائما للحرب ، وتحشد وتعبىء كل القدرات العسكرية والسياسية والمعنوية لخوضها . بينما نجد أنفسنا – نحن العرب – نفتت جهودنا ونبدد إمكانياتنا الضخمة لاعتبارات سياسية خانقة تضع القيود على هذه الجهود والامكانيات .

وهكذا استولت إسرائيل عام ١٩٤٨ على أرض عربية فلسطينية بزيادة قدرها ٥٠٪ على نصيبها فى قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة فى نوفمبر من العام السابق .

وهكذا انتزعت لنفسها ، نتيجة لاشتراكها فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، حق الملاحة البحرية فى خليج العقبة .

وهكذا توسعت عام ١٩٦٧ على حساب الأرض العربية باحتلال سيناء والمرتفعات السورية (الجولان) والضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزه ، لفرض الأمر الواقع – بالقوة العسكرية – على العرب دعماً لمصادر القوى الأخرى . وما زالت تفرض الأمر الواقع على الجولان والضفة الغربية والقطاع بالقوة برغم مرور أكثر من عشرين عاماً على احتلالها .

ولكل حرب من هذه الحروب الثلاث ظروفها السياسية وأهدافها الاستراتيجية ونتائجها فى إطار صراع القوتين العظميين فى الشرق الأوسط . إلا أن المقارنة بين قدرات الخصمين المتحاربين – العرب وإسرائيل – لا تعكس من الناحية العسكرية تلك الصورة التى انتهت إليها هذه الجولات الثلاث ، وكانت القوة العسكرية للطرفين المتحاربين هى العامل الحاسم فيما وصلت إليه حالة العرب السيئة فى الجولة الثالثة فى يونيو ١٩٦٧ .

□ □ □

ثم جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فكانت حرباً مختلفة تماماً عن الحروب الثلاث السابقة لها ، بعد أن تعمقنا فى معرفة العدو الإسرائيلى لتحديد مصادر قوته ومواطن ضعفه تحديداً دقيقاً مهّد لنا الطريق فى الصراع العسكرى الدائم والمستمر بين العرب وإسرائيل .

لقد خاضت قواتنا المسلحة حرب يونيو ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ ضد نفس العدو ، واختلفت النتيجة اختلافاً واضحاً بين الهزيمة والنصر . وأغلب الرجال الذين اشتركوا فى حرب يونيو هم أنفسهم الذين اشتركوا فى حرب أكتوبر بفاصل زمنى حوالى ست سنوات ، وهى فترة زمنية قصيرة لا يمكن أن يقال أن جيلاً حل محل جيل . فضلاً عن ذلك فإن الموقف العسكرى الاستراتيجى فى أكتوبر ١٩٧٣ كان أصعب من الموقف فى حرب يونيو . وبرغم ذلك عبرت قواتنا الهزيمة ، وحققت النصر العسكرى فى ظروف سياسية أعقد مما كانت فى يونيو .

ومن الملفت للنظر أيضاً أن إسرائيل انتصرت فى حرب يونيو من حدود اعتبرتها غير آمنة ، وانتصرنا عليها – نحن العرب – فى حرب أكتوبر من حدود اعتبرتها آمنة .

ومن هنا اتجه تفكيرى إلى أن أكتب عن حرب أكتوبر ۱۹۷۳ دراسة موضوعية ، أروى فيها ما حدث – بإيجابياته وسلبياته – عسى أن يكون فيها فائدة لجيل قادم ، سيتحمل المسئولية من بعدنا ، فى وجه مصاعب ومواقف بالغة التعقيد . فصراع القوى الكبرى لن يهدأ فى هذه المنطقة ، والصراع العربى الإسرائيلى لن يتوقف .

□ □ □

كتبت – بعد أن تركت الخدمة العسكرية والعمل العام – عن حرب أكتوبر ۱۹۷۳ . ووقع اختيارى على أن تكون تحت إسم « خواطر مقاتل ساهم فى حرب أكتوبر » ، حتى يكون واضحاً للقارىء أنى لا أكتب التاريخ العسكرى لهذه الحرب من جهة ، وأن تكون هذه الخواطر سرداً عاماً لما حدث فى الحرب وما جرى بعدها ، للخروج بالدروس المستفادة دون الدخول فى تفصيلات وتكتيكات المعارك التى لا تهم إلا العسكريين المحترفين فقط .

ووجدت أن الكتابة عن حرب أكتوبر ۱۹۷۳ وحدها لا تفى بالغرض المنشود ، إلا إذا كتبت أيضاً عن حرب يونيو ۱۹٦۷ ، لأنهما حربان لهما اتصال وثيق ببعضهما فى مرحلة واحدة من مراحل الصراع المسلح بين العرب وإسرائيل ، وفى مرحلة واحدة من مراحل الصراع السياسى بين القوتين العظميين فى الشرق الأوسط . وهنا لا بد أن أسجل أن كل ما حدث فى حرب يونيو ، كان له انعكاس فى العمل العسكرى فى حرب أكتوبر ، بل إن دروس حرب يونيو ۱۹٦۷ كانت إحدى دعائم الاستراتيجية المصرية فى حرب أكتوبر ۱۹۷۳ .

ولم يكن من الممكن أن أتجاهل تلك الفترة بين الحربين ، التى لم تفقد مصر فيها إرادة القتال ، وخاضت قواتنا المسلحة سلسلة من المعارك ضد العدو الإسرائيلى تصاعدت إلى حرب استنزاف ، والتى كانت تمهيداً مطلوباً وضرورياً قبل حرب أكتوبر .

احتفظت بما كتبت ، إلى أن يأتى الوقت المناسب لنشره فى مصر فى ظل القوانين التى أصدرتها الدولة فى هذا الخصوص .

□ □ □

ومرت سنوات ... قرأت فيها مذكرات سياسية وعسكرية ومقالات ودراسات صدرت عن حرب أكتوبر وحرب يونيو خارج مصر – وهو كثير – وفى داخل مصر – وهو قليل – وشد انتباهى أن وجهة النظر المعادية أصبحت هى المرجع الرئيسى للكتّاب والباحثين والمؤرخين . كما أن بعض ما كتب هنا وهناك لا يتسم بالموضوعية أو الدقة أحياناً لسبب أو آخر ، الأمر الذى أعطى انطباعاً ليس صحيحاً عما حدث فى حرب أكتوبر .

وأتيحت لى فرصة حضور ندوة فى جامعة المنوفية عن « الإنسان المصرى وحرب أكتوبر » كنت واحداً من ثلاثة تحدثوا فيها ، ثم كان لى – عن حرب أكتوبر – لقاء مع أعضاء هيئة تدريس جامعة الاسكندرية فى ناديهم ، ثم لقاء ثالث مع رجال الصحافة فى مصر فى نقابة الصحفيين . وأخيراً كان لى لقاء رابع فى دولة قطر بدعوة من نادى الجسرة الثقافى ، وكان موضوعه « حرب أكتوبر فى الميزان الاستراتيجى العربى » . وخرجت من هذه الندوات واللقاءات الأربعة بمجموعة من الأسئلة والتساؤلات عن حرب أكتوبر – عسكرياً وسياسياً – تحتاج إلى شرح وتوضيح لجيل جديد من حقه أن يعرف الحقائق التى تنير له طريق المستقبل .

ولفت نظرى ، خلال هذه اللقاءات ، أن ما كتب عن حرب أكتوبر خارج مصر ، موجود بين أيدى الكثيرين داخل مصر ، تأثروا بما كتب فيها أو يريدون استيضاح ما جاء بها من معلومات ، وكنت سعيداً بهذه الظاهرة .

وامتد تأثير ما نشر فى الخارج عن حرب أكتوبر إلى دراسات علمية تجرى فى الجامعات هناك . فقد شاءت الظروف أن يحضر للقاهرة إثنان من الدارسين بجامعات أمريكية أحدهما باكستانى والآخر أمريكى للاستماع إلى وجهة النظر المصرية عن حرب أكتوبر – ما جرى فيها وما حدث بعدها – بعد أن حصلا على المعلومات من الجانب الإسرائيلى عن طريق مذكرات قادتهم – وهى كثيرة – والكتب التى نشرت هناك أو المقابلات التى تمت معهم . وكان لقائى مع الدارس الباكستانى موضوعياً وعلمياً استغرق

حوالى ثلاث ساعات لتغطية وتصحيح جوانب موضوع بحثه بعد أن قرأ عن الموقف المصرى والعربى فى هذه الحرب من المراجع الإسرائيلية ومقابلة القادة الإسرائيليين .

□ □ □

تحفظت كثيراً وتأخرت طويلاً قبل نشر هذا الكتاب برغم مرور واحد وعشرين عاماً على حرب يونيو ١٩٦٧ وستة عشر عاماً على حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، إلى أن وجَّه لى الكاتب الكبير الأستاذ حلمى سلام رسالة على صفحات مجلة آخر ساعة بعنوان (رسالة إلى المشير الجمسى – السكوت ليس دائماً من ذهب) جاء فيها :

« يبدو أنك مؤمن إيماناً شديداً بالمثل القائل : إذا كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب ... وعلى مدى تلك السنوات تكلم عن هذه الحرب – حرب أكتوبر – من يعرف ومن لا يعرف ... من عاش الحرب يوماً بيوم واكتوى بنارها ولظاها ، ومن كان بين المتفرجين عليها .. كل هؤلاء تكلموا عن تلك الحرب إلا أنت ..

إن الشيء الذى لا يجوز أن تسقطه من حسابك ، هو أنك لا تملك حق الزهد فى الكلام .. ذلك أن الكلام عن مسار وأسرار هذه الحرب المجيدة التى هزمنا بها الهزيمة ، ورفعنا بها الرايات بعد تنكيسها ، وأحيينا بها الأنفس بعد مواتها ، إنما هو حق للتاريخ عليك ... مثلما هو حق للجيل الذى عاش هذه الحرب ، ولكل الأجيال القادمة على الطريق من بعده .

وبقى أن تقول لنا أنت – بالأمانة كلها – كيف حدث ذلك ، وكيف جاء أبناء مصر بهذا النصر من وراء الأهوال » .

واستقر رأيى على أن أختصر ما كتبت ، للتركيز على الأحداث التى عاصرتها وعايشتها . ومن هنا كانت البداية الضرورية هى حرب يونيو ١٩٦٧ ، وخصصت لها الباب الأول شرحت فيه كيف تم استدراج مصر لهذه الحرب فى وقت لم نكن على استعداد لها . وكانت مغامرة ومؤامرة .. انتهت بهزيمة أليمة لمصر والعرب .

ثم أعيد البناء ، ودخلت قواتنا عدة معارك تصاعدت إلى حرب استنزاف ، وانتهت بحالة اللاسلم واللاحرب ، ووصلنا إلى طريق مسدود لايجاد حل سياسى لمشكلة الشرق الأوسط . وخصصت لهذه الفترة الباب الثانى .

ثم فرضت الحرب حتميتها ، فجاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وخصصت لها الباب الثالث، مشتملاً على عدة فصول تغطى مراحلها - تخطيطاً وتنفيذاً - ويوميات الحرب أثناء إدارة العمليات العسكرية منذ البداية يوم ٦ أكتوبر حتى توقف القتال فى الثامن والعشرين من أكتوبر .

وبدأت السياسة تلعب دورها استغلالاً لنتائج الحرب . وظهر الدكتور هنرى كسنجر مستشار الأمن القومى الأمريكى ووزير الخارجية الأمريكية على مسرح الأحداث فى الشرق الأوسط ممثلاً للولايات المتحدة الأمريكية . واتبع سياسته المشهورة ، سياسة الخطوة خطوة ، فكان فض الاشتباك الأول بين القوات المصرية والإسرائيلية الذى تمبمباحثات الكيلو ١٠١ على طريق مصر السويس الصحراوى . وتلا ذلك فض الاشتباك بين القوات الإسرائيلية والسورية على جبهة الجولان . وخصصت لذلك الباب الرابع ، حيث كنت رئيس الوفد العسكرى المصرى فى مباحثات الكيلو ١٠١ .

وحدثت زيارة القدس التى قام بها الرئيس الراحل السادات فى أواخر عام ١٩٧٧ واستتبع ذلك إجراء مفاوضات سياسية فى القدس اشترك فيها وزيرا خارجية مصر وإسرائيل ، ومفاوضات عسكرية فى القاهرة اشتركت فيها بصفتى وزيراً للحربية مع وزير الدفاع الإسرائيلى . وهى المفاوضات التى استغرقت عدة شهور وصلت - سياسياً وعسكرياً - إلى طريق مسدود وتوقفت . وخصصت للمفاوضات العسكرية الباب الخامس .

وأخيراً تمت مفاوضات « كامب ديفيد » فى سبتمبر ١٩٧٨ على مستوى رؤساء مصر وإسرائيل وأمريكا ، انتهت فى الولايات المتحدة بتوقيع « اتفاقية كامب ديفيد » بين الرئيس الراحل السادات ورئيس وزراء إسرائيل بيجن ، وكان الرئيس الأمريكى كارتر شاهداً عليها . ونظراً لأنى لم أشترك فيها ، لذلك لم أكتب عنها فى هذا الكتاب .

وفى أعقابها مباشرة ، دخلت مصر مرحلة جديدة استدعت تغييراً شاملاً فى مؤسسات وأجهزة الدولة - حسب رأى وقرار السادات - فانتهت خدمتى بالقوات

المسلحة والعمل العام بالدولة بالاستقالة بناء على طلبى . وخصصت لهذا الجزء الباب السادس .

□ □ □

إنى أعلم تماما أن الحرب هى امتداد للسياسة بوسائل أخرى ، كما أننى على اقتناع بأن السياسة لها رجالها ، وهم القادرون على شرح سياسة مصر خلال الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣ وما بعدها حتى ١٩٧٨ أفضل منى .

لذلك التزمت أن يكون للجانب العسكرى الأسبقية والأهمية فيما أكتب ، وأن يكون للجانب السياسى قدر محدود لتوضيح ارتباطه أو تأثيره على العمل العسكرى أو العكس .

وحاولت بقدر ما استطعت أن يكون هذا الكتاب لمعالجة الموضوع العسكرى على المستوى الاستراتيجى وليس المستوى التكتيكى الذى يهم العسكريين فقط .

وأرجو أن يكون واضحاً ، أن كل ما جاء فى هذا الكتاب يعبِّر عن وجهة نظرى الشخصية ، ولا يعبِّر عن الرأى الرسمى للدولة أو القوات المسلحة المصرية .

وبكل الأمانة ، لا أهدف من هذا الكتاب تأييداً أو نقداً لهذا أو ذاك ، ولكنه شهادة قد تصلح لتكون أمام المتخصصين فى كتابة التاريخ .

وهى شهادة أقدمها لصالح مصر فقط ، عسى أن تنير الطريق إلى مستقبل أفضل .

والله ولى التوفيق ؟

القاهرة ١٩٨٩

مشير محمد عبد الغنى الجمسى
(رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة
أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ برتبة لواء)